قراءة في (شمس جديدة في ترشيحا)

انشودة الرفض والعشق والموقف

عبد الرحمن همادي

تقف عند حدود معاناتك اليومية ضمن تضاريس الهموم . فتحمل فأسك تنبش به تربة قهرك وأحزانك . وتتسلح بما جمعت من آلام باحثا عن ينابيعها، تستشرف في كل ذلك نبعا آخر . للفرح ضمن طبقات الرفض والثورة .

تتعب فتدعو الآخرين الى مشاركتك في بحثك هذا متشفعا بجراحك وجراح الوطن ... ولكنك تعجز عندما توغل في وطن الكلمات ، وفجاة تعرف ان هناك دعوة أطلقها أحدهم كما أطلقت، فأجاد بدعوته ، ولا تستغرب. لان ذاك كانت دعوته متلفعة برداء الشعر ، بل تستشعر راحة ورضاء لان هذا الشاعر كان لسان حالك حيث قصدت ، وتلك مزية الشعر . تستشعر راحة هي تماما كالراحة والرضاء اللتين نحسهما ، ونحن نقرأ الديوان الجديد للشاعر الفلسطيني محمود علي السعيد . والمعنون بـ « شمس جديدة في ترشيحا » (١) .

ان القارىء لديوان الشاعر يخرج بنتيجة أوحاها له العنوان في البدء ، هي ان الشاعر في أشعاره يعود الى جذوره القروية في ترشيحا ، القرية التي هاجر منها صغيرا . ولكنها طبعته فلاحا ، فكتب الشعر ضمن نطاق القرية ، ورؤيته لها ، بعيدا عن زيف المدن وتلوناتها . فعلى الرغم من سنوات النفي الطويلة عن ترشيحا ، رمز القرية الفلسطينية . لا زالت ترتسم أمام عينيه بمشاهدها الريفية الطيبة . وفلاحيها ، وترابها :

« وطيور البرق تدق على القرية
أبواب الصمت
تتقرى في وجه المحراث الخشبي
غصونا
تثقلها فاكهة الحطب الريفي
فترق رياح الصيف نداء
والمنجل في الصدر معلق » .

هو « فلاح » اذن ، قروي بطبعه . من بدائيته الريفية يخلق عالمه الشعري ، فيعطي أشعاره رونقا ايحائيا قويا ورائعا . ومن هذه البدائية يستمد انطلاقته الفنية . ورؤيته الجمالية . فحيثما كانت القرية كان الجمال . ان في المنفى . أو في الوطن ، فسلقين (٢) هي عنده جمالية مماثلة لجمالية ترشيحا ، وكل ما فيها طيب ورائع :

« أقرأ في عينيك الصافيتين
صفاء القرية
أشجار الزيتون المستقبلة
ضيوف الله بوجه باش
ضحكات العصفور الابيض
من أسلم حبا وكرامة
لرياح الآفاق زنوده » .

وتعامله مع الآخرين تعامل فلاح لا يعرف الا الصدق الجريء . والصراحة المطلقة :

« من خلل الدمع أصافحكم
أغصان العشق القروي » .

لهذا نحس دائما بحنينه العارم الى قريته في الوطن المحتل ، نحس بحرارة بكائه عليها ، واحصائه المواقف عليها ، ؛ وتكريسه غزلا عارما يتناسب مع العشق الذي يحمله في قلبه لها ، أوليس هو الفلاح الذي أجبر على النفي منها الى أفواه المدن :

« أحبك يا قرة العين
في عروق الطبيعة
نسغا
يبرعم موت الفصول
طريقا يدق عليها الزمان خطاه
فتعطي المسافات سحرا
يفتح صدر السواقي » .

---

(١) منشورات اتحاد الكتاب العرب ـ دمشق ـ أواخر ١٩٧٨ ، وترشيحا قرية الشاعر في فلسطين .

(٢) سلقين : قرية من أعمال محافظة ادلب في سورية .

ترى . أهي الرومانسية التي تطالعنا لدى بعض الشعراء معبرة عن حنينهم وشوقهم الى رسم عالم خاص مناقض للواقع بين أحضان الطبيعة ؟ أيكون محمود علي السعيد هو الشاعر الذي عقدته المدينة ففر الى القرية الرومانسية ينشد فيها عالما خاصا مريحا ؟!

والجواب ياتي بالنفي . فالشاعر في ديوانه الجديد لا يفرّ الى القرية والطبيعة ، لانه اساس من القرية ، بل هو الحنين اليها ، حنين يشوبه احساس مر بالضياع بين انياب المدن في غربة قاتلة ، اضف انه في قرويته هذه يكرس موقفا جريئا كشاعر فلسطيني مغترب يحمل قضية هجرته حيثما رحل :

« ترشيحا
ماذا يا غالية العينين عن الغربة
وزمان الهجران يطول
عن أحلام النهر الرائق
يرسم في عين الاطفال
قباب الافراح » .

المهم ان الشاعر في تعامله مع الاشياء والآخرين والقضية ينطلق من البدائية الفلاحية الجريئة ، فيكرس لنا شاعرا مفتقدا ، أو موجودا على حياء في الساحة الادبية ، فهو لا يعرف المجاملة أو التلون او تزييف الامور ، ومن هذا المنطلق بالذات يستمد قوة الكشف التي تندر الا عند من بقي متمتعا بالنظرة الطفولية ، فهو ضليع بدقائق الامور ، ومن ضلاعته هذه ، ومن معرفته التامة للحقائق ، يرسم وعيا صادقا لتضحيته بالذات في سبيل الارض والبراءة والقضية :

« لأني وقفت أمام الحقيقة
لأني عرفت بأن القتيل
يصدر للطير قمح البراءة
أكون هواء نميرا
يعبىء صدر الطبيعة
أكون أمام عيون الصغار
مقصا يقلم ظفر الضواري
اذا مار فيها دم الافتراس » .

انها ثورية واضحة تتمتع بالحرارة والقوة . ولكنها ليست ثورية منجرفة ، انها ثورية واعية ، تعرف على ماذا تستند ، ومتى وكيف تنطلق . انها تنطلق من صفوف الفقراء المسحوقين ، ومن المنبوذين المضطهدين ، تتخذ دعمها واشراقتها ، فالشاعر يؤمن بالثورة التي يشكل الفقراء وقودها ، الفقراء الذين ينتمي الشاعر اليهم ، ويعلن انتماءه هذا بكل فخر :

« الفقراء هم الفقراء رفاقي
وأنا أطلق في الوديان
رصاص الماء » .

وعنده ان جيل الفقراء وحده هو الذي يشعل وقود الثورة . وينطلق بها مدمرا مرايا الصمت الاسود ، ولهذا الجيل يعطي نبوءته المستقبلية عن الزمن الطيب ، الزمن المدمّى بتضحيات المسحوقين ، والايتام المشردين :

« فتشب من الاقمطة الفقراء
كل الاطفال الفقراء
بروقا
تشعل في وجدان اليقظة شبق الرفض » .

هذا الايمان الاعمى بالمستقبلية المنيرة للطبقة الكادحة ، يضعه الشاعر مستندا الى رؤيا واضحة . فالزمن الحاضر بما يحمله من تفاعلات وأحلام ترتبط بالزمن الآتي . وصبر هذه الطبقة مؤشرات رائعة لنبوءته:

« يا وطني
فقراء نحن ونملك كل سلاح الفقراء
أنوقت وأحلام الآتي
الوقت وأحلام الآتي » .

فكيف اذن تبعد هذه الطبقة عن ساحة الوطن ؛ كيف تنفى عن المواقع التي يجب أن تكون لها ، وهي وحدها المعنية بما يجري ؟ أوليست الشعارات تطرح باسمها ، والمزادات تمارس عليها ؟ أضف ان الخلاص لن يكون الا عن طريقها :

« فلماذا يا وطن العشق نأوا
فقراء الارض عن الميدان ؟ » .

بل اننا نلمح وعيا سياسيا في تعامله مع فقرائه : فبما ان كل شيء ضدهم في هذا الزمن الكالح ، فيجب أن تتحد صفوفهم كي يثبتوا وجودهم الحقيقي على الساحة ، لهذا لا بد أن يتحدوا :

« الرفض أن تقف الفصول
حديقة
يتعانق الفقراء فيها » .

و لابد من هذا التعانق للاسراع بالخلاص ، فالواقع في سوداوية قاتمة جدا ، فها هي الاعوام تمر على الوطن ، ولا زالت الامور كما كانت في سلبياتها ومرارتها ، والجماهير تجتر أحلامها بكسل وتراخ ، تخشى من كل خطوة تسير بها الى اليقظة ، ولهذا يعلن الشاعر الادانة :

« ومر العام اثر العام يا زندا
ولا زلنا
وقوفا في نقاط الفيء
نستاف الرؤى المرة
ونلعن ضربة المجداف » .

وكل شيء متداخل ، حتى ان الشاعر يعلن بمرارة حيرته من ضياع الخيط الاسود في الخيط الابيض بغروب هذا الوطن ، فالنفط العربي سلاح بيد الاعداء يضربوننا به ، والمزاودات على شعارات الحرب تطرح ،

وصفقات الاستسلام تعقد ، ومن بين هذه وتلك تمزق موجع للشاعر الذي يراقب كل ذلك ويعلن :

« ما عدت أفرق في الانبوبة
بين ضمير البترول المتدفق حرا
وضمير الماء المفقود
بين طقوس السلم
وبين طقوس الحرب
ما عدت أفرق يا وطني » .

انه وطن « غريب » حقا ، فكل شيء فيه يجري عكس ما يجب أن يكون ، فالقاتل يرتع حرا ، ويبرأ بسهولة ، والمقتول يدان ويجلد !! ناهيك ان جثث الشهداء ، والايتام ، والدموع و ... كلها اشارات للقهر :

« القهر يخالط في مجرى العينين الدمعة
يا وطني » .
« ولماذا المقتول ظلامه
وبقاع الدم شهود عيان
يجلد يا وطني ؟ » .

أضف غربة الشاعر في منفاه ، وبعده عن وطنه فلسطين ، عن قريته ترشيحا .. ذكرياته عنها ، طفولته المفقودة فيها ، كل ذلك يفجر فيه احساسا متناميا بالقهر والغربة ، بحيث تعبق من مجمل قصائده رائحة التشرد وآلام النفي :

« أنا في الريح والامطار
يا وجه الذي يأتي
سؤال جنحته الريح فانبجست
ظلال القهر من عينيه
تروي قصة الغربة » .

ومن هنا أيضا كان احساسه الجارف بالضياع ، فهو في لحظات وصوله الى قمة انفعالاته يهيم في الطرقات ، يبحث عن شيء افتقده .. ويبحث ، فنسأل: أتراه يبحث عن الاستقرار النفسي ، أم الجسدي ،

« اتفرس في وجه المارة
ابحث بالرمش المكسور عن الوجه
الضيعت ولم ألق » .

ولكن ما نلبث أن نقترب من الجواب عندما تطالعنا حسرة الشاعر القوية على وطنه فلسطين ، الوطن المسروق الذي يحن الشاعر اليه ويتمنى لو انه يعود الى أحضانه مرة أخرى بعد أن يتخلص من أسر تشرده وغربته :

« يا وطن الطرق المسدودة في وجه الخطوات
يا وطن المنجل والحطاب
انتظر على مفترق الغربة خابية
يطفح منها العشق القروي » .

نعم ، أنه أحساس قوي بالغربة ، يعيشه الشاعر بشكل متواصل في كل مكان ، ويتنامى في داخله باطراد طالما هو بعيد عن وطنه فلسطين ، ولنستمع الى هذه الصرخة المتألمة التي تجسد مرارة اغترابه :

« غريب أنا يا نشامى المدينة
غريب أنا في خسوف القمر » .

بل تمر عليه لحظات يحس فيها بالانهيار الكامل والعجز التام أمام السوداوية التي تحيط به ، والتي تسهم الغربة في ألوان قتامتها :

« يورق الماء ضحايا
في ضمير الشجرة
وأنا خلف جدار الليل قنديل مهشم
وبقايا مقبرة » .

أضف ان كل شيء في هذه الغربة متداخل ، فالشعارات على الساحة تطرح . والمزاودات تعلن ، والاضطهاد يمارس ، ودموع الاطفال ، جثث الشهداء .. والشاعر يرقب ويئن حتى مرحلة الانهيار :

« ما عدت افرق يا وطني
ما بين النقطة مثقلة بثمار المعنى
ترشح من كلمات البرق ثقابا
يفضح تقرير الارض الواشي
والنقطة في صدر الطلقة » .

ولكن هل يكون انهياره كاملا وأبديا وهو يصور الحقيقة السوداء ؟!

أما من خيط للتفاؤل في كبة التشاؤم المعقدة والتي كشف الشاعر عن خيوطها ملتفة على اسطوانة الواقع ؟ اننا نريد من الشاعر دائما أن يعطينا ضوءا ينير لنا الخلاص ، ولا نصفح له أن يسقط للنهاية ، فمهمة الشاعر لا تنتهي عند حدود الكشف ، بل تستمر حتى عمق الخلاص . وفعلا ، هذا ما نراه عند محمود علي السعيد . فلئن كانت عملية الكشف لديه قد اظهرت ركاما من التناقضات ، فان هذه العملية ذاتها أعطتنا طرفا آخر مشرقا يحمل بذورا طيبة للنمو المثمر في حدائقنا الآتية ، ويبدو هذا الجانب في اشعاعتين : الاولى في ذوبانه الكامل والتام في قضايا الوطن ، وانسفاحه على معبده بأريحية وتضحية رائعتين ، فهو في معظم أشعاره يذوب بكل محبة في الآخرين ، ويضحي بنفسه من أجل الطفولة خاصة ، لانه فيها يستقرىء ملامح جيل تنهزم الهزيمة على يديه :

« أكون أمام عيون الصغار
مقصا يقلم ظفر الصواري
اذا مار فيها دم الافتراس »

ويعلن نفسه قربانا رخيصا للوطن بكل جهاته ، فهو مستعد للاحتراق في سبيل انارة دروب هذا الوطن ،

فهو من ترابـــه . ومعاناته وآلامه . وأفراحه كلهـا يستقيها منه :

« أنا الاوراق يا وطني
اذا البرد ادلهم عليك
انا الوصل الذي نسجت عقاربه
دم الساعات » .

ولا عجب . فحبه للوطـــن أكبر من أن يتجسد بالكلمات والتعابير . وهو حب عـــذري مجاني لا يطلب الشاعر مقابلا له ؛ فالغايـــة تتحدد بالحب والتضحية فقط . ودون المطالبة بشيء . وهذا ياتي في أعلى درجات العطـاء :

« وحسبي اني
ومن فرط حبي
مع الريح والليل والبرد
طرقت عليك » .

اما الاشعاعة الثانيـــة المتفائلة . فهي الرفض . الرفض الـــذي يكمن فيه مفتاح الخلاص مـن جميع التراكمات والسلبيات . الرفض الـذي يحمل في طياته أسلحة العودة للوطن المحتـل ، وان ترفض الجماهير ، فذلك يعني انهـــا قد رسمت لنفسها دربا للراحـــة المنشودة :

« الرفض ضفاف تورق فيها البذرة سوما
قبل مجيء الماء
الرفض شهادة أن لا ملجأ الا الرفض » .

ومع ان الرفض طريق شـــاق وصعب ، الا انه الطريق انوحيد ، فالواقع والتجربة قد أثبتا ان لا خلاص يأتي بـــدون الرفض ؛ أما المراوغة والمهادنة والكلمـات المعسولة ، فكلها أمور لا تأتي بنتيجة ، والقول الفصـل في هذا الزمن للاقوى ؛ والاقوى من يبدأ بالرفض :

« في عصر الغابة قولان
أن تقتل غيرك او تقتل
تتلمس دربك في الماضي
في المستقبل » .

اضف ان الشاعر بعد كل شيء ممتلىء بالتفاؤل . صحيح انه يقف على أرضية كالحـــة في وطن الردة ، ولكنه كما رأينا يتطلع الى الفقراء والرفض كأساسيـن للخلاص ، ومن هنا يستمد معنى مقاومته ، فلئن كانت الطعنات توجه لجسد هذه الارض ، والافاعي تلدغهمـا من جميع الجهات ؛ فالعشق لا يزال يحتفظ بنكهته في هذا الوطن ، وللنور اشعاع كبير سينفذ بلا شك لينير كل مكان :

« غير ان الرفض في الطرق
التي طالت
فصفق للمحطات البعيدة عاشق
وخطا .. وقبّل » .

هذه هي بعض جوانب ديوان الشاعر محمود علي السعيد . حيث ظهر لنا شاعرا متميزا من شعراءالمقاومة الفلسطينية. حيث ترتبط القضية لديه بالبعد الانساني. ثم بالبعد العربي ؛ حتى توصله الى فلسطين . والـــى فريته ترشيحا التـــي جسدها حنينا وتفاؤلا وعشقـا لا يحـدّ .

هذا من ناحية المضمون الذي لم أتطرق الا الـى بعض جوانبه . منوها الى ان كشف عالم هذا الشاعـر في ديوانه يحتاج الى أكثر من وقفة تعطي هذا المضمون حقه . ولنا أن ننتقل الى بعض جوانب الشكل .

نلاحظ ان الشاعر في تعامله الشعري يلجأ الـــى عملية التتابع المتواصل في الصور الشعرية التي يوظفها بمهارة لصالح معاناته . موضوع القصيدة . مما يجعـل القارىء ينتقل من صورة الى اخرى بدون توقف ، جاعلا اياه يعيش في عالم شعري ، موصلا اياه في النهاية الى الغاية التي يقصدها ضمن عملية اقناع نفسية وشعورية .. وكمثال سأورد هذا المقطع . حيث يمكننا أن نلاحظ فيه مدى التتابع في الصور الشعرية :

« أشد على الريح
في قبضة الريح
اركض معها
لعل المسالك يوما تلاقي
حبيبين في الصحو
غصنا وظلا
اذا الغصن أرخى العنان
تمطى الحبيبان طولا
وان يقصر الظل فالغصن يعطي ،عصا الطاعة
العمر
عمرا .. ووصلا » .

لاحظوا الربط الكثيف بين الصور ؛ فمن عمليـة الشد على الريح . انتقال الى صورة الحبيبين بهيئـة الغصن والظل ، الى تحولات الغصن المرتبطة بتحـولات الحبيبين في الصورة الاولى ؛ الى تحولات أخرى لنفس الغصن ترتبط بالعمر وبالوصل . ولنحكم على مـــدى الروعـة التي أحسسناها في انتقالنا بيـن هذه الصور المرتبطة مع بعضها بشكـــل جميل ، اضافة الى اننـا نكتشف مجهرية عين الفنـــان هنا لدقائق الاشياء . وتوظيف هذه الدقائقلصالح الصورة المحببة : « الظل.. الغصن .. العصا .. الخ » .

هذا الاكثار من الصور يلجىء الشاعر الى الاعتماد بغزارة على التشبيهات التمثيلية وتطويعها ، بحيث يمكن لها أن تخلق احساسا بالمتعـة الشعرية ، وحثا عـــلى المشاركة الوجدانية بانفعالات وهموم الفنان ؛ ثم يعمـد الى وضع هذه الصور كلها في لوحة واحدة هي بمجملها

صورة جديدة . وصوره ، بطبيعة الحال ، صور مبسطة محببة ، تستمد عناصرها من الامور القريبة منا ، ومن الاشياء البسيطة المعاشة دائما : « الارض .. القضية.. الغربة .. القرية .. الريح .. » .

القارىء تجـــذبه الى الديـوان أيضا الموسيقى الشعرية التي توفرت في مجمـل القصائد ، وربما كان ذلك مرده الى اعتماد الشاعر نظام التفعيلة ، ولا سيمـا تفعيلة (المتقارب ، فعولن) التي تتميز بأنها تعطي جرسا موسيقيا وافرا ، ملائمة اغلب الانفعالات الانسانية .

نلاحظ في الديوان ان الشاعر كـان واعيا لعملية توظيف (المدّ والقطع) لصالح ايحائية القصيدة ، ففي حين كثرت المدود بشكـــل وافر ، قلّ القطع بشكـل ملحوظ ، وهذا يعود الى الدفقات الهادئـة الواعية التي اطلقها الشاعر أولا ، وليلائم دفقاته الشعرية مع حالات الحزن والغربة والقهر التي يعيشها ثانيا ، مما يفسر لنا سر الاكثار من المدود . مثلا ، لو حاولنا أن نحصـــي المدود الموجودة في مقطع ما سنجد :

« أقول عيونها
الساعات والارض الصبية والذي يأتي » .

فالمدود الموجودة هنا هي : اقول: الواو ــ الاشباع على اللام . عيونها : الياء ــ الواو ــ الهـاء ــ الالف . الساعات : الالف ــ الالف ــ التاء المشبعة . الارض : الراء المسكنة بعد خفي ــ الضم على الضاد .. الخ ... ولكنه من جهة اخرى وظف القطـــع لصالح المواقف الشعرية التي تتطلب القوة والحزم ، مثلا :

« يشدها ، يشدها
وترفض الجذور
تفارق القديم من خلانها
اضمامة الدقائق المليئة الشفاه » .

نلاحظ اكثاره الواعي هنا من القطع ، لان الموقف المتأجج والحماس المتدفق يتطلب ذلك ، ولو احصينـــا القطع أيضا لوجدنا : يشدها : الدال . ترفض : الـراء المشددة ــ الضاد. الجذور : اللام المدغومة باللام ..الخ. المأخذ المبدئي الذي يمكن أن نأخذه على الشاعر هو عدم اكتراثه بعلامات الترقيم واهميتها في الشكل الشعري، أو اهماله لها . مما أفقد بعض هذه القصائد قسما من الايحاء المفترض فيها ، ولا سيما في قصيدة « ابحث بالرمش المكسور » ، مثلا ، يقول :

« .. ومع الساعات المحكوم عليها بالاعدام
تتقن لغة الاشياء على أحسن وجه
حسنا
وبدأت مسيرتي الاخرى عبر الايام
في أي المنعطفات تسربت البارحة
عن العينين
وكمثل عجوز يتقن سر المهنة .. » .

فالمقطع جزء من حوار ثلاثي بين الشاعر وصديقه وذات الشعر ، يبـدأ بـ (قال صديقي) ، في حين ان (حسنا) هي عـــلى لسان الشـــاعر ، و (في أي المنعطفات ..) سؤال جديد من الصديق ، وهكذا ..

فأين هي علامات الترقيم التي كـان من الممكن ان لا تفقد هذه القصيدة جانبا كبيرا من روعتها ؟

بالنتيجة :

ان محمود علي السعيد ، يتكرس في ديوانه الثاني « شمس جديدة في ترشيحا » ، شاعرا متقدما مـــن اصواتنا الشعرية في الوطن العربي بشكل عام ، وفـي شعر القضية الفلسطينية بشكل خاص .

القامشلي ــ سوريا

صدر حديثا :

الطريق الى الخيمة الاخرى

دراسة في اعمال غسان كنفاني

تاليف الدكتـورة رضوى عاشور

دار الآداب